

# الطريقة العربية للحرب

## مراجعة أدبية للحروب العربية في القرون الوسطى

الرائد باسل أبو العينين ، القوة الجوية الامريكية

### مقدمة

لطالما ناقشنا أصل هذا المصطلح - العرب - لفترات طويلة. وهو عبارة قد صاغها الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في المقاطعة الرومانية لسوريا. ومع ذلك، استخدم مصطلح "العرب" في وقت سابق بواسطة بطليموس في علمه للجغرافيا - الذي كُتب في منتصف القرن الثاني للإشارة إلى الذين يعيشون في جزيرة العرب. كما استخدمه بطليموس للإشارة إلى جزء من سيناء. في وقت لاحق، استخدم هذا المصطلح في الإشارة إلى الشعوب العربية وأصبح مرادفا للمسلم. ما هو مؤكد هو أن هذه الحدود الصحراوية ستأتي قريبا في الصدارة وتسكن إمبراطورية قد حددت مرحلة في تاريخ البشرية وسوف تستخدم كلمة العرب لأية جماعة في هذه السهوب الصحراوية.<sup>1</sup>

شكلت جزيرة العرب قطعة أرض على شكل مثلث بين مصر وسومر. ولم تجذب الإنسان المتحضر سابقا لأنها أرض قاحلة ووعرة وغير مرغوب فيها نظرا لندرة الأمطار هناك. ومع ذلك منذ البداية، بدأ النشاط التجاري يظهر في المناطق المواتية والبؤر الاستيطانية المستنيرة ثقافيا مقارنة بالطرق المعزولة من الصحراء. ومع ذلك، في الأوقات السابقة كانت هذه المستوطنات قليلة ولا تحظى بأي أهمية. وكانت الشعوب العربية معظمها من البدو الرحل في الطبيعة وقد اعتبرهم جيرانهم المتحضرين برابرة. ومن المثير للاهتمام، أنه في الكتيب الأول من الكتاب المقدس ذكر أن البدو العرب هم سلالة إسماعيل، الذي يعتبره العرب المعاصرون سليل "من سيكون رجلا همجيا وستكون يديه ضد كل رجل وستكون يد كل رجل ضده". يتألف سكان جزيرة العرب من نوعين: البدو المقاتلين والمستوطنين المسلمين. فصل العداء المتبادل بين كلا النوعين. اعتبر المستوطنون البدو عدوا طبيعيا واعتبر البدو المستوطنين فريسة مشروعة.<sup>1</sup>

كانت جزيرة العرب أرضاً قاحلة حيث جمعت بين المجاعة والجهل مما حال دون وسيلة عقلانية للحياة. كان لديهم قانونهم الخاص بشرف القبائل والعقوبات العشائرية. وكانت به بعض الرحمة. على سبيل المثال، كان الحق في اللجوء مقدساً للغاية - وهو العرف الذي بموجبه يُمنح اللاجئ الهارب من غضب شخص آخر الحماية من قبيلة صحراوية ويمكنه الشعور بالأمان مثلهم لأنهم لن يسلموه مهما كان الجرم الذي ارتكبه.<sup>٢</sup>

وبالنظر لهذه البدايات البدائية والوثنية للعرب، كيف استطاع هؤلاء البدو ساكني الصحراء الخروج من هذه الحالة إلى إمبراطورية امتدت على مدى قارتين؟ ومن الناحية العسكرية، حاولنا طرح هذا السؤال، لماذا أثبت المسلمون - في عصر فتوحاتهم وتوسعهم القائم على المرتزقة، وقواعد السلوك والأحكام - أنهم ناجحون جداً ولبعض الوقت أصبحوا قوة عسكرية لا تقهر؟

## كلمة الراعي وخلق العالم

لم يكن هناك دين إلهي في جزيرة العرب قبل النبي محمد (ص) . وبحكم طبيعتهم، لم يكونوا رجالاً أصحاب فكر روعي. هؤلاء البدو الذين لم يعبدوا أي شيء على الإطلاق اعتقدوا أن الأشجار والأحجار هي مساكن للأرواح. ومع ذلك ووفقاً للعرب، اعتبرت فترات العصور المظلمة التي سبقت النبي محمد (ص) أيام جهل أو جاهلية. وبدا أن جزيرة العرب خالية تماماً من الثقافة. ابتليت الهمجية والجهل الأرض وأصبح العرب في عزلة عن التأثيرات الخارجية.<sup>٤</sup>

وفي عام ٥٧٠ ميلادية ولد في مكة المكرمة صبي من العرب يُعد من أعظم الرجال في كل العصور بسبب نفوذه اليوم. رجل كان مقدر له أن يتبنى ديناً عالمياً ويصبح مصدر إلهام لثورة ستخرج مواطنيه من الظلام إلى النور ويغير مسار تاريخ البشرية. جاء النبي محمد (ص) إلى العالم وسط عائلة بسيطة ومن أصول قبلية جيدة. لا نعرف إلا القليل عن حقيقة طفولة النبي محمد (ص) مثل يسوع الناصري. رافق عمه في رحلات القوافل الطويلة. وفقاً للتراث إنه رجل ذا مظهر لافت للنظر ووجه جميل وحكيم وعيون سوداء ثاقبة ولحية كبيرة، وهو رجل صادق موهوب بالبصيرة النافذة والبلاغة الطبيعية. هذه البلاغة جاءت في شكل أمثال وحقائق ملهمة غطت جميع جوانب الحياة. وكان أحدهم إدارة الحرب.<sup>٥</sup>

عندما أدرك النبي محمد (ص) دوره كرسول الله، بدأ في نشر رسالته دون استخدام العنف في وسط سكان مكة المعادين. ثم هربوا من الاضطهاد وطلبوا اللجوء في المدينة الشمالية (المدينة المنورة). وهنا وجدت الإمبراطورية العربية مستقبلها. حاربوا أعداءهم في مكة وتوسعوا شمالاً بعد هزيمة الساسانيين ومناطق من الإمبراطورية البيزنطية. خلال هذه الفترة، وضعت مبادئ الإسلام الأولى الخاصة بالحرب. وبدأ وحي الآيات الأولى بانتقاد الحروب الإسلامية التي ظهرت أثناء الحروب الأولى مع الوثنيين في مكة. "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين."<sup>١</sup>

## الأدب العسكري العربي التمهيدي والأحكام الإسلامية في الحروب

يمكن توضيح فن العمليات في حروب الإسلام من المصادر الموجودة الآن. خاض المسلمون معارك قصيرة وعنيفة وقد شارك بها الفرسان ورماة الأسهم الذين يمتطون الأحصنة. ورأى المسلمون أن رماة الأسهم الذين يمتطون الأحصنة أكثر سرعة ومرونة من نظرائهم في الغرب. وكانت تقوم على سرعة وخفة حركة الجياد العربية وكذلك على الأسلحة الخفيفة مثل الدرع والقوس والسيوف. هذه القدرة على التنقل مكنت قوات المسلمين من البقاء على مسافة بعيدة من فرسان الأعداء. استخدمت جيوش المسلمين حيلة التراجع الختلق لسحب فرسان العدو من أحصنتهم أو سحبهم إلى كمان. قدر المسلمون مثل هذه المبادئ الأساسية مثل تجنب التطويق، وضرب قلب جيش العدو، والحفاظ على قوة احتياطية كقوة إغاثة. وفي القرن ١١ و ١٢، عُرف الفن العربي في الحروب بالتفوق العددي، والهجوم على أجنحة الجيش، واستخدام الأراضي.<sup>٢</sup>

بعد وفاة النبي محمد (ص) في عام ٦٣٢ ميلادية، أقام الخلفاء حكمهم في جزيرة العرب، وبدأوا فتوحاتهم نحو العراق وبلاد فارس في الشرق، ونحو مصر وسوريا وشمال أفريقيا في الغرب. بعد فتح إسبانيا في عام ٧١١ ميلادية، قد بنى العرب بالفعل إمبراطورية واسعة تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى نهر السند في غضون حوالي مائة عام. وفي حين أن العرب بدأوا في إنشاء نظامهم الخاص للحروب، إلا أنهم لم يترفعوا عن تعلم دروس كثيرة من الأمم التي هزموها. الجيش البيزنطي - على وجه التحديد - كان بمثابة نموذج لقواتهم البرية. بدأ

الكتاب والمترجمون العرب المساهمة بأبحاث قيمة عن الحرب فضلا عن السمات المحددة للحروب مثل رماة الأسهم وسلاح الفرسان. للأسف، لم ينجوا إلا عدداً بسيطاً جداً من الأبحاث. بعض هذه الأبحاث كانت ترجمات لكتب مكتوبة باللاتينية أو اليونانية أو السنسكريتية. وبحلول القرن العاشر، يمكننا القول أن العرب قاموا بتطوير فن خاص بهم للحروب. وفيما يلي قائمة لمراجع الأدب العسكري العربي في العصور الوسطى والتفاصيل الموجودة داخل كل بحث.<sup>١٠</sup>

أحد الأعمال الكلاسيكية من القرن الـ ١٤ كُتبت بواسطة عمر بن إبراهيم العواسي الأنصاري - وذلك في عهد المماليك للسلطان فرج بن برقوق - وهو تفريغ الكروب في تدبير الحروب ويناقدش تكتيكات سلاح الفرسان ونشر قوات المشاة، وأهمية التجسس واختيار المعسكرات. ويذكر فيه أكثر من ٤٠ نصاً كلاسيكياً عن الحروب العربية المكتوبة بين القرن ٨ و ١٥،<sup>٩</sup> ويتناول موضوعات عن استخدام الفرس لسلاح الفرسان، والاستخدامات الرئيسية للرمح وتشكيلات المعارك، وأمطة تدريب الفرسان في اليونان وبلاد فارس وشمال أفريقيا. وذكر المؤلف أنه كتب بحثه لنوعين من القراء، "١). من قدر يقرأه صدفة من القادة النبلاء التابعين للسلطان وقادة جيوشه، و ٢). من يعد هو من ضمنهم من لم يشهدوا الحروب، وذلك لصغر عمره."<sup>١١</sup>

تضم مخطوطة الأنصاري فصولاً عن ١). الحذر في وقت السلم عندما يقيم الحاكم في عاصمته، ٢). التجسس والعملاء، ٣). الخداع والحيل التي تجنب الحرب، ٤). شرح متى يكون ضرورياً مواجهة العدو، ٥). معسكرات الجيش، ٦). تعبئة الجيش، ٧). أساليب الهجوم ليلاً، ٨). الكمائن وإدارة أمورهم و ٩). وصف منهجي للدفاعات التحصينية.<sup>١١</sup>

ويناقدش أحدها الأبحاث الفريدة كيفية التعامل مع الهندسة العسكرية ومسح ساحة المعركة، واستخدام الصواريخ وزراعة الألغام وكتب بواسطة عثمان المهدي تحت عنوان هدية المهدي في علم الهندسة والمساحة ورمي الخميرة وحفر اللغم.<sup>١٢</sup>

وكتبت أطروحة بعنوان مختصر سياسة الحروب بواسطة أبو سعيد الهرثمي، في ظل الخلافة العباسية بالقرن الـ ٨. وبغض النظر عن كونها دليلاً للتكتيكات، فقد كانت خلاصة لاستراتيجيات الحروب وقد شملت ٤٠ موضوعاً عن الانضباط العسكري، وخصائص القيادة، والتعبئة العسكرية والكمائن.<sup>١٣</sup>

وبطلب من صلاح الدين الأيوبي، كتب مرضي بن علي المرضي الطرطوسي كتاب تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب. هذا الكتاب - تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب - هو أفضل كتاب عن الأبحاث العسكرية العربية في القرون الوسطى. مثل غالبية الكتيبات العسكرية الإسلامية لم تُفسر محتوياته بالكامل. وتعكس الوثائق معرفة عسكرية أكبر خلال الخلافة الفاطمية السابقة عن عهد صلاح الدين الأيوبي نفسه. ومن أحد سمات هذا الكتاب الوصف الدقيق لتكتيكات المشاة المعقدة ومفاهيم سلاح الفرسان. المفاهيم التي من المحتمل أنها طورت خلال القرون اللاحقة في أوروبا الغربية كانت أساسية في التفكير العسكري الإسلامي منذ القرن ٧<sup>١٤</sup>، ويتضمن محتويات هامة عن الصفات القيادية لصلاح الدين الذي أهدى له هذا العمل. فضلا عن جزء متعلق بالرمية بعنوان "إشارات إلى التفوق في التصويب بالنبال والسهام." وتعليمات عملياتية عن سيف المبارزة، والقوس، والتكتيكات الميدانية، والصولجان، والرمح، والدروع. كما قدم وصفاً لأنواع مختلفة من المناورات العسكرية.<sup>١٥</sup>

يوضح الكتاب - تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب - بتفصيل دقيق تنظيم الجيش كما يصفه الطرطوسي. "ضع المشاة قبل سلاح الفرسان لتخلق قلعة صلبة. وأمام كل جندي من جنود المشاة ضع درعاً على شكل طائرة ورقية كوسيلة لتوفير الحماية ضد أولئك الذين يهاجمون بالرمح أو السيوف أو السهام. ووراء كل زوج من الرجال ضع رامي للسهام... دورهم هو ردع المهاجمين. يُفصل الفرسان الموجودون في مؤخرة الجيش عن الخطر بواسطة الرماة ... التنظيم الصحيح هو جوهر التصرف في المعركة، وهذا التصرف يذلل ويحرج هذا العدو. عندما يهاجم العدو صفاً واحداً، تستطيع الوحدات الأخرى مهاجمة العدو من كلا الجانبين وتحيط به. بحيث يهاجم العدو من جميع الاتجاهات بما يوقف كل حواسهم. وهذه الأمور تحقق النصر. مدى خطورة هذه الاستراتيجية المفروضة على العدو تجعله يضعف وينهزم ...."<sup>١٦</sup>

يبدو أن محمد بن منصور فخر الدين مبارك شاه يتفق مع تبصرة في أرباب الحرب والشجاعة وأساليبه للقتال في الميدان، وخاصة فيما يتعلق باستخدام ترتيب المشاة والرماة في صفوف. ذكر الكتيب أنه "من الضروري أن يكون المشاة في الصف الأول مسلحين بدروع عريضة ورمح والرماة لهم دور دفاعي."<sup>١٧</sup> ويعتمد الكتيب على مصادر واسعة النطاق من المعلومات، وليس فقط ما ورد في المصادر

العربية الإسلامية التقليدية والفارسية. ولكن أيضا المصادر الهندية الهندوسية. فضلا عن مصادر من الصين وجزيرة العرب قبل الإسلام.

ومن الجدير بالذكر - على الأقل فيما يتعلق بالتكتيكات العسكرية العربية - أن الرماية كانت من ضمن التخصصات العسكرية الأولى التي وضع لها دليل كتابي. قد يرجع ذلك إلى حقيقة أن المسلمين وجدوا أن الرماية لديها نظام تدريبي أكثر تطورا عن التخصصات الأخرى بسبب شعبيتها كرياضة. ولذلك، انتقلت بسرعة أكبر بكثير من تخصص تدريبي للصيد إلى تخصص كتابي وعسكري.

أطروحة أخرى كُتبت أيضا في عهد الأسرة الأيوبية، بواسطة علي بن أبي بكر الهراوي، وهي دراسة مفصلة عن جيوش المسلمين في ميدان القتال وحث الحصار بعنوان التذكرة الهروية في الحيل الحربية وتناولت الفصول (١). التزامات السلطان الشخصية. (٢). صفات الحكام والقضاة والمسئولين والوزراء. (٣). صفات مبعوثي المهام. (٤). عن دور الجاسوس أو العميل في البحث عن معلومات. (٥). كيفية جذب المحاربين. (٦). عن إرسال الكتائب. (٧). عن الحذر من العدو. (٨). عن كيفية جعل الجنود متحمسين للمعركة و (٩). مهاجمة الحصون وخطوط العدو.<sup>١٨</sup> عموما، تهتم الفصول العسكرية في كتيب الهراوي بكيفية الانتصار عن طريق المفاجأة، والحيل والكمائن، وليس بالممارسة القياسية في ساحة المعركة، وكنوع من التعليق العسكري على السياسات التي استخدمها صلاح الدين في المعارك. ويقدم معلومات مهمة عن عقلية صلاح الدين الأيوبي العسكرية. وفقا للهراوي، يمكن الانتصار بالمعارك في عقول المحاربين كما في ساحة المعركة.<sup>١٩</sup>

ناقش محمد بن علي بن الأصباغ الهراوي - على الأرجح ابن الهراوي السابق - الحيل والتكتيكات والخدع في عمله المسمى بكتاب البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار وغامض ما اجتمعت عليه الرماة بالأمصار.<sup>٢٠</sup>

ومن المثير للاهتمام، أن تناول محمد بن منكلي - رئيس حرس السلطان في عهد المملوك السلطان شعبان الثاني - في أحد الأبحاث العسكرية الأنظمة والتكتيكات العسكرية للفرجة واليونانيون والأتراك والعرب والأكراد. وكان عنوان بحثه الأدلة الرسمية في التعابي الحربية. كما كتب محمد بن منكلي بحثا عن الفن العسكري وإدارة الأسلحة، وإعداد الأسلحة، والتصرف السليم في ظل ظروف معينة تحت عنوان التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية.<sup>٢١</sup>

وكتب موسى بن محمد اليوسفي المصري بحثا يتكون من عشر فصول بعنوان كشف الكروب في معرفة الحروب ويتناول الحرب بشكل عام. كما أصدر كتاباً عن أدوات الحرب، تحت عنوان كتاب الأنيق في المنجنيق في عهد شعبان الثاني، وهو بحث يتناول مختلف الآلات المستخدمة في الحصار عند مهاجمة قلعة خلال الفترة الصليبية.<sup>٢١</sup>

ومن أحد الأبحاث التي أوضحت الخطوات التي يجب اتخاذها عند الدخول في معركة واحدة وكيفية استخدام أسلحة مختلفة ببراعة عندما تكون منفرج الساقين، وبخاصة الصولجان، كتبها مؤلف مجهول بعنوان كتاب المبارك في لعب الدبوس والسريع على الخيال عند ميولوت الخصم في أوقات الحرب.

وفقا لشتاتزيميلر، مؤلفة الحروب الصليبية والإسلامية - إعادة تقييم، فإن أول ملاحظة قد يذكرها الطالب الذي يدرس الحرب الإسلامية هي أنه لا توجد دراسة عامة لهذا الموضوع. وقد يعتبره حالة شاذة في التأريخ لحضارة قد ينظر إليها على أن قوتها ترجع لمهارات أعضائها العسكرية. في الواقع، المؤلفات العلمية المتعلقة بالحرب الإسلامية ليست ضئيلة.<sup>٢٢</sup>

بالإضافة إلى الأبحاث العامة الواردة في المقالات، والدراسات والأبحاث حول جوانب الحرب الإسلامية، يوجد اختلاف قائم بين العلماء فيما يتعلق بالتسلسل الزمني ومضمون المصادر نفسها: ففي حين يعتقد بعض العلماء أن أدب الحرب تم تأليفه في الغالب خلال الفترة الكلاسيكية من الخلافة العربية، إلا أن البعض الآخر نسبه إلى ما بعد الحروب الصليبية. قام بعضهم بوضع تسلسل زمني للأدب في الحرب، موضحين أن العرب لم يكن لديهم تكتيكات محددة في عصر النبي محمد (ص)، وأن المؤسسات الإسلامية العسكرية وصلت الكمال في زمن الحروب الصليبية أو ربما بعد جنكيز خان. وقد كتبت العديد من الأعمال باللغة العربية لكتاب غير معروفين عن مواضيع عسكرية. بدأت الكتابة في التزايد خلال القرون الأولى من الهيمنة الإسلامية، ولكن معظم هذه الأعمال فقدت في وقت لاحق. كانت هذه الأعمال إما قوائم طويلة من عناوين مكتوبة باللغة العربية من القرن ٧ أو ٨ ميلادية مع دراسة بسيطة أو معدومة عن الأعمال نفسها، أو تحليل للمصطلحات اللغوية وشعر عن الحروب والأسلحة قام بكتابته المؤرخون أو الشعراء العرب في الفترة الكلاسيكية حتى القرن ال ١١.<sup>٢٤</sup>

الجيوش الإسلامية المبكرة في القرنين الأولين من تاريخ المسلمين. أظهرت وجود تفضيل ورغبة في تعلم ما يحدث في الأماكن الأخرى في التاريخ العسكري. وكان السبب الرئيسي هو عدم وجود ثقافة عسكرية متطورة لدى العرب الأوائل.<sup>٢٥</sup> مبادئ الأحكام الشرعية للحرب معقدة جداً. وانعكست هذه الأحكام في الفترات الأولى من التوسع العربي، والصراعات مع القوى الغربية أي الصليبيين، والقوى الشرقية أي المغول. تتجسد الطريقة العربية للحرب في الروايات القصصية للنبي محمد (ص) في شكل أحاديته والقرآن. ركزت النصوص الإسلامية المتعلقة بالحروب على مفاهيم الحرب، ومعاملة السجناء، وأمطة الصراعات، وغنائم الحرب فقط.<sup>٢٦</sup>

لم تحقق الأحكام الإسلامية المتعلقة بالحرب نتائجها المرجوة في القرن الهجري الأول ولكنها تقدمت ببطء. والفكرة الرئيسية أن الحرب كانت تُشن وفقاً للمبادئ الدينية وكذلك الحرب العادلة. الفكرة الرئيسية الأخرى كانت مفهوم الحرب المقدسة، التي حددت متطلبات الإسلام كالإلتزام بالواجب الجماعي لكل محارب مسلم عندما يقع مجتمع مسلم تحت التهديد. تلبى متطلبات المشاركة في الجهاد من خلال شن الحرب إما (١). بالقلب، (٢). باللسان، (٣). بالأيدي أو (٤). بالسيف.<sup>٢٧</sup>

وفقاً للقرآن، فإن معايير الأهلية لتصبح محارباً إسلامياً تشمل:

١. أن تكون مسلماً (ولكن توجد وجهات نظر مختلفة بين الحديث والآراء الدينية)
٢. وصلت سن البلوغ أو سن الرشد. معظم العلماء يتفقون على أن سن ال ١٥ عاماً هو سن الأهلية القانونية، نقلاً عن حديث عن ابن عمر الذي منعه النبي محمد (ص) من القتال أثناء غزوة أحد عندما كان عمره ١٤ عاماً ولكن سمح له القتال في سن ال ١٥.
٣. يكون سليم العقل.
٤. يحظى بحرية الاختيار للمشاركة في الحرب.
٥. يكون ذكراً. ومع ذلك، هناك بعض التناقضات موجودة حيث أن الإناث لعبت دوراً أساسياً في المعارك الإسلامية، ليس فقط برعاية الجرحى

ولكن بالمشاركة أيضا في القتال. وفقا لحديث. قتلت امرأة تدعى أم أحمره بحد السيف عند قتالها في مكة.

٦. موافقة الوالدين.

٧. لا توجد عليك ديون. سعى هذا الحكم لمنع الضغوط الاقتصادية عن طريق عدم تشجيع تطوع المدنيين.<sup>٢٨</sup>

تكتيكا هو دليل عسكري كتبه الإمبراطور البيزنطي ليو الرابع. ويذكر هذا المفهوم عن التعبئة التطوعية لجيش المسلمين قائلا: "إنهم لا يشكلون جيوشهم من التجنيد أو السخرة. بدلا من ذلك تأتي أعداد كبيرة من سوريا وفلسطين. ويقدمون أنفسهم طواعية: الأغنياء لشعورهم بالتعصب لبلدهم، والفقراء على أمل النهب. هذا الإغواء يجذب شبابهم الذين هم في أقوى مراحلهم العمرية ومنهم النساء التي تساعد بالتسليح".<sup>٢٩</sup>

وضعت مقدمة قواعد السلوك الإسلامي خلال المعارك التي لعب فيها النبي محمد (ص) دورا حاسما. والتي كانت معظمها معارك ضد قبائل مكة. قدمت صياغة النبي محمد (ص) مدونة متميزة لقواعد السلوك بين المحاربين المسلمين، والتي كانت متوافقة تماما مع الممارسات المتبعة للحرب العربية. وشملت:

١. عدم قتل النساء والأطفال والأبرياء. وهذا قد يشمل النساك والرهبان أو غيرهم من الزعماء الدينيين غير المقاتلين:

٢. القتل غير المبرر للماشية والحيوانات:

٣. حرق أو تدمير الأشجار والبساتين و

٤. عدم تدمير الآبار.<sup>٣٠</sup>

أعد أبو بكر الصديق - أول الخلفاء الراشدين الذي تولى الحكم بعد وفاة النبي محمد (ص) - مجموعة شاملة من القواعد للسلوك الإسلامي خلال الحرب. وأعطى الإرشادات التالية لجيش المسلمين المتجه إلى سوريا، التي كانت تحكمها الإمبراطورية الرومانية الشرقية في هذا الوقت.

"توقفوا أيها الناس، سأعطيكم ١٠ قواعد لإرشادكم في ساحة المعركة. لا ترتكبوا أي خيانة أو تنحرفوا عن الطريق الصحيح. لا تشوهوا الجثث. لا تقتلوا شيخاً

كبيراً أو طفلاً أو امرأة لا تصيبوا الأشجار بأي ضرر ولا تحرقوها بالنيران، خاصة الأشجار المثمرة. لا تقتلوا أي قطيع من العدو، باستثناء طعامكم الخاص. من المحتمل أن تمروا بمن كرسوا حياتهم للخدمات الرهبانية: اتركوهم وحدهم".<sup>٣١</sup>

ومن ضمن المفاهيم الأكثر أهمية للحرب الإسلامية المبكرة تكتيكات الخداع أو الحيل في الحرب، والتي شملت استخدام التجسس، وهي تقنية غير معروفة لدى القبائل العربية. في صحيح البخاري، الفصل ٧٣، الحديث رقم ١٢٩٨، قال النبي محمد (ص) "حقاً، إن الحرب خدعة". وافق علماء الدين الإسلامي اليوم على استخدام الخدع في الحرب إذا مورست على غير المسلمين الذين قطعوا معاهدات السلام، ولكن لم يسمح باستخدام الخدع بين الكيانات غير المسلمة التي تتعايش معهم سلمياً.<sup>٣٢</sup>

ومن المثير للاهتمام، أن المحاربين المسلمين الأوائل اعتقدوا أن رجولتهم مرتبطة بكون سلوكهم شهم وكرم ومضيف وشريف دائماً. وكان هذا انعكاساً رائعاً ودقيقاً لطريقة الحرب الإسلامية التقليدية، وخاصة الطريقة "البربرية" الغرناطية. وعلى النقيض من جيوش الفرسان في العصور الوسطى بأوروبا، كان قادة الجيوش الإسلامية في العصور الوسطى يهتمون بالنجاح والحد من الخسائر البشرية، بدلاً من المجد أو "الشرف" كما وصفه فرسان القرون الوسطى. الشرف الفردي - فيما يتعلق بالمحارب المسلم في القرون الوسطى - يمكن تحقيقه في قتال واحد.<sup>٣٣</sup>

كتب دون خوان مانويل - أحد كتاب أسبانيا البارزين في العصور الوسطى وابن أخ ألفونسو العاشر ملك قشتالة - في كتابه ليجرو دي لوز إستاندوس (كتاب الدول) أن حرب البرابرة تختلف عن حرب المسيحيين. في الحرب يقاتلون على مسافات قريبة أو يناوشون من بين الأشجار أو يهجمون في غارات أو يستخدمون استراتيجية "الضرب والهروب" على الاتصالات ومؤخرة جيش العدو أو يقاتلون في معركة واحدة. في الواقع، تمتاز طريقتهم في القتال بالتنوع الشديد من طريقة لأخرى.<sup>٣٤</sup>

ضاع قدر كبير من الأدب العسكري في القرون الوسطى فيما يتعلق بجيوش العرب، لدرجة أن ليو الرابع - إمبراطور بيزنطة - كتب مقتطف عن جيوش العرب في كتابه الأكثر شهرة بين الكتيبات العسكرية البيزنطية والمتعلق بالقوانين التكتيكية بعنوان تكتيكا. أحد الأجزاء الأكثر إثارة للاهتمام

تناول أعداء الإسلام العرب، وهم الطولونيون في مصر وبلاد الشام والخلافة العباسية في العراق.<sup>٣٥</sup>

وذكر ليو الرابع أن "جيوش العرب عادة تستخدم الجمال لنقل الأمتعة، بدلا من الثيران أو البغال لأن هذه الحيوانات تخيف سلاح الفرسان [الذي يهاجمهم]، كما يستخدمون أيضا آلات الصنج والطبول لإخافة أحصنة العدو، ويستمتعون بالحرب ويرافقهم العديد من القساوسة." <sup>٣٦</sup> "ومن السمات الرئيسية للجيوش الإسلامية أن ترافقها الشخصيات الدينية والعلماء وقارئ القرآن الكريم. كانت دماؤهم ساخنة ولا يحبون الطقس البارد. وتتألف قواتهم للمشاة من "الأثيوبيين الذين يحملون الأقواس الكبيرة". <sup>٣٧</sup> في الغالب كان ليو الرابع يشير إلى القوات الطولونية وليس القوات العباسية. لعبت قوات المشاة الأفريقية - ولا سيما ذات الأصل النوبي - دورا كبيرا في الجيوش المصرية العربية في بداية القرون الوسطى وحتى القرن ال ١٢. بالنسبة للعرب، يُعد النوبيون من الرماة المهرة.

في المعركة - وفقا ليو الرابع - "يزيد أمل الفوز من شجاعتهم لكن تُضعف التقلبات من شجاعتهم. ويعتقدون أن النتيجة في يد الله بالكامل، مثل كل شيء آخر. ويقبلون النكسات دون شكوى وينتظرون أوقات أفضل للقتال في المعركة. لا يحتاجون إلى النوم كثيرا، ولهذا السبب لديهم قوة هائلة عندما يقاتلون بالليل، وخاصة عندما يغزون أراضي العدو". <sup>٣٨</sup> "ومن المثير للاهتمام، أنه تم تأكيد هذا البيان بشدة في المصادر العربية مما يوحي أن هذه التقنيات استندت على مزج تقاليد الحرب الرومانية البيزنطية والساسانية الإيرانية.

وفقا لكتاب تكتيكا، "نظام [العرب] في المعارك هو مربع طويل مُعزز من جميع الأنحاء ومن الصعب جدا اختراقه. يحافظون على هذا الشكل عند المسيرة وفي المعركة. ويقلدون العديد من العادات والأساليب "الرومانية" المتعلقة بالهجوم فهم يشبهوننا إلى حد كبير. في معاركهم بالبحر يستخدمون - كما هو الحال مع قوات المشاة على الأرض - صفوفاً قريبة ويستخدمون الدروع في الدفاع عن أنفسهم. ولهذا السبب، يقاتلوننا بقدر كبير من الحذر. تُقدر مبادئهم وأساليبهم في الحرب كل ما هو أفضل في جيوش الأمم الأخرى". <sup>٣٩</sup> نستنتج من هذا البيان - الذي أدلى به ليو الرابع ودعمته النصوص العسكرية العربية الأخرى في العصور الوسطى - أن هذا الحرص على التعلم من الآخرين كان المعيار الفعال في طريقة العرب للحروب.

وقرب نهاية القرن ١١، كتب أحد العلماء - من أصل مسلم أندلسي ويدعى محمد بن وليد أبي بكر الصديق الطرطوشي - وصفا معقداً عن الأساليب النموذجية التي يستخدمها العرب في الحرب بعنوان سراج الملوك. يدعو المؤلف إلى فهم التكتيكات المستخدمة سابقاً ليستفيد منها الحكام الجدد الذين يفتقرون إلى خبرة المخضرمين في الحرب ضد مسيحي شمال أيبيريا.<sup>٤١</sup>

يناقش الطرطوشي بتفصيل دقيق ترتيبات ساحة المعركة "هذا هو ترتيب المعركة الذي نستخدمه... والذي أثبت مدى فعاليته في معاركنا مع أعدائنا. رتبت المشاة التي تحمل الدروع الكاملة والرماح الطويلة ... أنفسهم في صفوف عدة. يوضع عقب الرمح في الأرض والجزء الأمامي موجه إلى الأمام نحو العدو ويمسك الجندي الرمح في صدره. خلف جنود المشاة هؤلاء يتواجد نخبة من رماة السهام الذين يمكنهم إصابة دروع الجنود. خلف الرماة يتواجد الفرسان. عندما يهاجمنا العدو. تبقى قوات المشاة في مواقعها مع ركبهم على الأرض. وعندما يصل العدو على مسافة قريبة يقوم الرماة بإطلاق سحابة من الأسهم وبعد ذلك يرمي جنود المشاة الرماح ثم يحصلون على رماح أخرى"<sup>٤٢</sup> ويمكن اعتبار هذا الاستخدام لجنود المشاة المنضبطين في صفوف كمثال واضح على المزج الفريد بين تكتيكات المشاة الرومانية والبيزنطية في الطريقة العربية للحرب. وبعد ذلك "يفتح جنود المشاة والرماة صفوفهم في حركة مائلة إلى اليمين واليسار وذلك من خلال المساحات المتوفرة لكي يهجم الفرسان على عدونا..."<sup>٤٣</sup>

## في الختام

سواء إذا كانوا البربريين الأندلسيين في أيبيريا أو قوات صلاح الدين الخضرمة في بلاد الشام أو (الراشدين) جيوش الراشدين خارج جزيرة العرب، عموماً كانت فتوحات العرب سريعة، واعتمدت جزئياً على المبادئ الدينية والعلوم العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى، كما اعتمدت جزئياً على تشويش أعدائهم. القادة العرب كانوا أصحاب كفاءات عالية جداً. فقد طوروا نظاماً لقيادة الحرب أكثر مرونة وقابلية للتكيف عن إمبراطوريات بيزنطة وفارس. وكان النبي محمد (ص) عادة يستمع بحرص لاقتراحات وآراء أصحابه و في غضون سنوات قليلة، استطاع تغيير الحدود السياسية للشرق الأدنى، وانتقل مركز الحياة السياسية من مجرد مدينة للتجارة متجاوزاً البحر الأحمر إلى بلاد غنية ومليئة بالسكان من منطقة الهلال الخصيب وشمال أفريقيا وأسبانيا. عاملان تمكنا من

رد الأعداء الخطيرة للعرب، أعدادهم وقوتهم غير العادية على التحرك. يبدو أن قوة العرب العسكرية تركزت في القتال المباشر والتنظيم المنهجي والانضباط مما جعلها تتوسع على نطاق واسع وتزدهر بشكل حيوي. على الأقل لبعض الوقت.

## ملاحظات

١. فيرغوس ميلار الشرق الروماني القريب: في العصور ٣١ قبل الميلاد - ٣٣٧ ميلادية. (كامبردج، ماجستير في الآداب: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٣)، ١٧٠-٣٨٨.
٢. توماس بيرترام، العرب - قصة حياة الشعب الذي ترك بصمته على العالم، (نيويورك: دووبلدي ودوران وشركاه، ١٩٣٧)، ٣-٥.
٣. بيرترام، ١٠-٥.
٤. كما ورد في نفس المرجع، ٢٤.
٥. بيرترام، ٢٧-٣٣.
٦. يوسف أبو العينين وشريفة زهور، أحكام الإسلام في الحرب، (كارلايل، PA: معهد الدراسات الاستراتيجية بكلية الحرب للجيش الأمريكي، ٢٠٠٤)، ٤-٧.
٧. كريستن الاول رماة الأسهم وغيرهم، التاريخ العالمي للحروب، (لينكولن، نبراسكا: مطبعة جامعة نبراسكا، ٢٠٠٢)، ١٥٤-١٥٥.
٨. عبد الرحمن زكي، "المراجع الأولية للأدب العسكري العربي في العصور الوسطى"، جلاديسوس ٤ (١٩٦٥): (١٠٧).
٩. أبو العينين، ٢.
١٠. زكي، ١١٠.
١١. كما ورد في نفس المرجع، ١١١-١١٢.
١٢. كما ورد في نفس المرجع، ١١٢.
١٣. كما ورد في نفس المرجع، ١٠٧.
١٤. ديفيد نيكول، "الحرب في العصور الوسطى: الواجهة العادية"، مجلة التاريخ العسكري ٦٣ (١٩٩٩)، ٥٩٢.
١٥. زكي، ١٠٨.
١٦. نيكول، ٥٩٣-٥٩٤.

١٧. كما ورد في نفس المرجع. ٥٩٤.
١٨. زكي، ١٠٨-١٠٩.
١٩. بنيامين كيدار، قرون حطين، (القدس: جمعية الاستكشاف الإسرائيلية، ١٩٩٢)، ٢٢٨-٢٣٨.
٢٠. كيدار، ١٠٩.
٢١. كما ورد في نفس المرجع، ١٠٩.
٢٢. كما ورد في نفس المرجع، ١١٠.
٢٣. مايا شاتزميلر، "الحروب الصليبية والإسلامية - إعادة تقييم"، دير إسلام ٦٩ (١٩٩٢): (٢٤٧).
٢٤. كما ورد في نفس المرجع، ٢٤٧-٢٤٨.
٢٥. نيكول، ٥٨١-٥٨٢.
٢٦. أبو العينين، ٢-١.
٢٧. كما ورد في نفس المرجع، ٣-٤.
٢٨. أبو العينين، ١٢-١٣.
٢٩. نيكول، ٥٨٨-٥٩٠.
٣٠. أبو العينين، ٢١-٢٢.
٣١. أبو العينين، ٢٢.
٣٢. كما ورد في نفس المرجع، ٢٥-٢٦.
٣٣. نيكول، ٥٩٩.
٣٤. نيكول، ٥٩٩.
٣٥. كما ورد في نفس المرجع، ٥٨٨.
٣٦. كما ورد في نفس المرجع، ٥٨٨.
٣٧. كما ورد في نفس المرجع، ٥٨٨.
٣٨. نيكول، ٥٨٩.
٣٩. كما ورد في نفس المرجع، ٥٨٩.
٤٠. كما ورد في نفس المرجع، ٥٩٠.

٤١. نيكول، ٥٩١-٥٩٢.

٤٢. كما ورد في نفس المرجع، ٥٩٢.

## الأعمال المقتبسة

يوسف ابو العينين و وشريفة زهور. الأحكام الإسلامية في الحروب. كارلايل. PA: معهد الدراسات الاستراتيجية بكلية الحرب للجيش الأمريكي، ٢٠٠٤.

رامي السهام، كريستون الأول، جون آر. فيريس وهولغر إتش. هيرويج وتيموثي إتش. إي ترافرز. التاريخ العالمي للحروب. لينكولن. نبراسكا: مطبعة جامعة نبراسكا، ٢٠٠٢.

توماس بيرترام. العرب - قصة حياة الشعب الذي ترك بصمته على العالم. نيويورك: دووبلدي ودوران وشركاه، ١٩٣٧.

بنيامين كيدار. قرون حطين. القدس: جمعية الاستكشاف الإسرائيلية، ١٩٩٢.

فيرغوس ميلار. الشرق الروماني القريب: في العصور ٣١ قبل الميلاد - ٣٣٧ ميلادية. كامبردج، ماجستير في الآداب: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٣.

ديفيد نيكول. "الحرب في العصور الوسطى: واجهة معادية". مجلة التاريخ العسكري ٦٣ (١٩٩٩): ٥٧٩-٥٩٩.

مايا شاتزميلر. "الحروب الصليبية والحروب الإسلامية - إعادة تقييم". دير إسلام ٦٩ (١٩٩٢): ٢٤٧-٢٨٨.

عبد الرحمن زكي. "قائمة المراجع الأولية للأدب العسكري العربي في القرون الوسطى". جلاديس ٤ (١٩٦٥): ١٠٧-١١٢.